

الموت: رحلة الشوق واللقاء:

قبل أن نستفيض في الحديث عن (بعض) سلوكياتنا في التشيع والمقابر ومجالس العزاء، من الضروري أولاً أن نبسط مغالطةً ذهنية راسخة في وعي الكثيرين، وهي أن الموت مرادف للرعب والوحشة.

في جوهر الأمر، الإنسان لا يخاف الموت لذاته، وإنما يخاف "الجهل بحقيقتها"؛ فالمرء عدو ما جهل. ولو تبصر الإنسان في معنى هذه الرحلة، وعلم أنه وافدٌ على ربِّ كريم، رحيم، ودود، وغفور، وأنه سيكون في جوار محمد وآله الأطهار (صلوات الله عليهم)، لتبدل خوفه شوقاً، ولخفق قلبه بكلمات زيارة أمين الله: «مُشْتَاقَةً إِلَى فَرَخَةٍ لِقَائِكَ».

وهنا يشرق نور القرآن الكريم في قلب المؤمن ليكشف أعظم بشارة إلهية في لحظة الابتلاء والرحيل، إذ يقول الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: 155-156].

فإن عز وجل لا يترك عبده في لحظة الفقد والانتقال، بل يفتح له باب البشارة حتى في لحظة الألم، وكأن الرحيل إليه ليس نهاية موجعة، بل بداية مُبَشِّرَةٍ بلقاء كريم. وإن أعظم مصاديق هذه البشارة أن العبد المؤمن إذا صدق في رجوعه إلى الله، وجد في لحظة الموت ما لا يخطر على قلب بشر من الرحمة والطف والكرامة.

وفي هذا السياق، يتجلى معنى عظيم: أن الله سبحانه يُبَشِّر عبده في موطن الرحيل إليه، وكأن الموت نفسه يتحول في عين المؤمن إلى رسالة أمان لا فزع، وإلى باب رحمة لا خوف.

○ فلسفة التدوق والانتقال:

إن التدبر في البيان القرآني يكشف عمق هذه الحقيقة؛ فالقرآن لم يقل "كل نفس تموت"، بل قال سبحانه: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ الْمَوْتِ) [آل عمران: 185] والتدوق صفة لا تكون إلا للحي، فالميت

لا يذوق شيئاً. هذه الآفة تلفت بصائرنا إلى أن الموت ليس فناءً أو عدماً، بل هو بوابة عبور، وانتقال من ضيق رحلة أرضية مؤقتة، إلى سعة عالم أبدي أعظم بركةً وجوداً.

■ تأمل في حال الجنين؛ لو كان الجنين في بطن أمه يعقل، لربما شعر بالخوف من الخروج إلى الدنيا، وطنٌ مفارقة الرحم نهاية لوجوده. لكننا نعلم أن خروجه لم يكن موتاً، بل ولادة في عالم أوسع وأجمل.

هكذا نحن في هذه الدنيا؛ نظن الموت نهاية المطاف، بينما هو في الحقيقة بوابة لولادتنا الحقيقية في عالم لا تسعه الكلمات، ولا تدرك أبعاده العقول.

إن المؤمن لا يرى في الموت انطفاءً بل لقاءً، ولا يخرج برحيله عن مملكته، بل ينتقل من دار الامتحان والكدر، إلى دار الجزاء والفضل والطف، وافتداً على من سبقت رحمته غضبه. نعم، يظل المؤمن مشفقاً من التقصير والذنوب، لكن رجاءه في الله وحسن ظنه به يغلبان الخوف، فهنيئاً لمن رحل متمسكاً بإيمانه، نابضاً قلبه بحب محمد وآل محمد.

الجنابة: الموعظة الصامته ورسالة المستقبل:

من هذه الرؤية الروحية، تكتسب الجنائز قيمتها كأعظم المواعظ الصامته التي يرسلها الله للأحياء. فالإنسان حين يمسي خلف جنازة مؤمن، فهو لا يشيخ مجرد جسد فارق الحياة، ((بل يشيخ مستقبله الشخصي الذي يسير إليه حتماً)).

لذا، أراد الإسلام لهذه اللحظات (التشييع، الدفن، العزاء) أن تكون محطات تفكير وخشوع، لا مواسم للاستغراق في الدنيا.

○ مظاهر مؤلمة تخالف هيئة الموقف:

مما يبعث على الأسى والوجع، أن نرى بعض المؤمنين في المقابر أو مجالس العزاء ينشغلون بأحاديث التجارة، والأسعار، والأعمال، بل وربما ارتفعت أصواتهم بالضحك والمزاح والجدال.

إن هذه السلوكيات لا تخدش هيئة الموت فحسب، بل تزيد جراح أهل المصاب الذين يعترضهم ألم الفقد، فيشعرون أن مصيبتهم لم تُحترم، وأن جلال الموقف قد انتُهك.

○ أدب الشريعة ورعايتها لمشاعر الأحياء والأموات:

لقد رسمت الشريعة المقدسة آداباً دقيقة تعكس عظمة هذا الدين ورفقته؛ فكرهت الضحك، واللغو، والانشغال بالدنيا، بل وكرهت حتى تقديم التحية (السلام) أثناء التشييع. وأوصت بأن يكون المشييع مستغرقاً في ذكر الله، والاستغفار، والتفكير والصمت الواعي.

بل إن الروايات تؤكد أن للमित إدراكاً وشعوراً بمن يشيِّعه ويدعو له، لذا أمرت الشريعة بعدم مفاجأته بالقبر، بل يُرفق به ويُمهل ويوضع قريباً من لحدّه لدقائق قبل إدخاله.

◊ موضع تفكير: إذا كانت الشريعة تبدي هذه الرعاية الفائقة لمشاعر الميت وهو جماد في نظر البعض، فكيف يغفل بعض الأحياء عن مراعاة مشاعر أهل المصاب الحاضرين أمامهم؟!

ومن آداب التشييع أيضاً المشي بسكينة ووقار دون إسراع ينافي الرفق بالميت؛ فالغاية ليست طي المسافة إلى القبر سريعاً، بل استحضار العبرة، والوعي بأن هذا الطريق الذي نسلكه اليوم خلف غيرنا، سيمشي به الناس خلفنا غداً.

■ ثمار الوعي بالموت: إعادة ترتيب الأمور الدنيا

حين يقف الإنسان أمام القبر مستحضراً هذه الحقائق، يحدث تحول جذري في وعيه، وتبدأ أحجام الأشياء والهموم بالتغير في عينيه.

■ تلاشي الخصومات: كم من قطعة رحم أو هجر صديق دامت لسنوات بسبب كلمة عابرة أو خلاف دنيوي تافه! أمام القبر، يدرك المرء أن الجميع (الغني والفقير، القوي والضعيف، المتخاصمين والمتحابين) سينتهون إلى الحفرة ذاتها، فتصغر الدنيا في عينه.

■ عظمة الخالق وصغر المخلوق: تتجلى هنا حقيقة وصف المتقين في خطبة أمير المؤمنين (ع): «عَظْمَ الخالق في أنفسهم فَصَغُرَ ما دونه في أعينهم». فإذا امتلأ القلب بالبصيرة الناطرة لعظمة الله، تلاشت هموم الدنيا، وصغرت الإساءات والآلام المالية والاجتماعية. (وليس المعنى ترك الحقوق، بل عدم السماح للدوافع الدنيوية بأن تولد الضغائن وقطع الأرحام).

■ مجالس العزاء والمقابر: محاريب خشوع لا استراحات اجتماعية

إن أكبر خطأ نقع فيه هو أن نتحول الجنائز والمقابر بكثرة الاعتياد إلى مشهد مألوف يفقد تأثيره في القلوب، فيصبح الموت مجرد خبر يومي لا رسالة إلهية للتغيير.

■ المقابر: ليست ساحات للضحج وتبادل السوالف، بل هي مواطن سكيّنة؛ من دخلها يجب أن يدخل بقلب خاشع ولسان لاهج بالذكر. فالمقبرة مكان لنتذكر فيه أننا سنُدفن، لا لنتحدث فيه عما سنأكله بعد الفراغ من الدفن!

مقارنة من واقع التجربة: بين كلفة المظاهر وبساطة الواجب

إن مجالس العزاء -للأسف الشديد- انحرفت لدى البعض عن غايتها الروحية والمواساة الإنسانية، لتتحول إلى مظاهر اجتماعية مرهقة يغلب عليها التكلف المبالغ فيه.

ومن واقع مشاهداتي وتجربتي الشخصية، يظهر هذا التباين جلياً:

لقد حضرتُ (بعض) عزاء أهل المدينة المنورة، ورأيت فيه من التكلف المبالغ فيه في كل شيء ما يبعث على التعب والأسف؛ حيث كان العزاء مكلفاً، صعباً، ومتعباً في آنٍ واحد، لشدة المبالغة في الكماليات وبروتوكولات الاستقبال والتوديع، وتجهيز ولائم الغداء والعشاء، وتقديم الشاي والقهوة وكأنه حفل اجتماعي!

وفي المقابل، حضرتُ عزاءً في المنطقة الشرقية، فكان على النقيض تماماً؛ وجدته بسيطاً جداً، ومتواضعاً للغاية، لا تكلف فيه ولا مبالغة، ولا تطغى عليه تلك الكماليات وحسابات الضيافة والأطعمة والأشربة.

للأسف الشديد، أقول هذا الكلام لأننا نرى (بعض) الحاضرين يأتون إلى مجالس العزاء غايتهم وهدفهم التحدث عن أمور دنيوية مخجلة من طريقة الاستقبال إلى التوديع ونوع الشاي وطعم القهوة ومذاق الأرز وجودة اللحم، إلى القيل والقال، وإمضاء الوقت بـ "السوالف"، مفرغين المصيبة من جلالها وعبرتها.

ومن هنا، أتمنى صادقاً من كل قلبي من جميع المؤمنين والمؤمنات أن يعيدوا النظر في هذه الأمور

بجدية، وأن يستوعبوا تماماً بأن هذه المظاهر والتكلف المادي والمعنوي ليست من الآداب في شيء، وليست أبداً من آداب محمد وآل محمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) الذين علمونا السكينة، والزهد في المظاهر، ومواساة أهل المصاب بتخفيف الأعباء عنهم لا بإرهاقهم بالشكليات والكماليات.

إن مجلس العزاء ليس مجلس أخبار وأحاديث، بل مجلس رحمة وقرآن واستغفار. ومن المؤسف جداً أن يُتلى كلام الله بالأجزاء أو الأحزاب أو قراءة التختيمة (القرآن) عبر مكبرات الصوت في العزاء وتشاهد (بعض) الحاضرين غارقين في أحاديثهم الجانبية. إن احترام القرآن لا يكون بتقبيله ووضعه على الرأس فقط وحفظه في الأماكن المرتفعة فحسب، بل بإعظام تلاوته والإنصات له في أي مكان وزمان.

■ قاعدة ذهبية: إن لم يكن لديك ذكر أو دعاء تنطق به، فاجعل صمتك عبادة. تأمل في رحلة هذا الراحل السعيد إلى رحمة الله، وتدبر في المدة الزمنية القصيرة لهذه الدنيا. فرب كلمة دنيوية طائشة تجرح قلباً مكسوراً، ورب دعوة صادقة تفتح للميت أبواب الرحمة، ورب لحظة تفكر صامته تغير مجرى حياتك بالكامل.

○ لحظة أمل:

لقد شيعنا الكثير من الجنائز، ووقفنا على مئات القبور، وحضرنا مجالس عزاء لا تحصد؛ ولكن السؤال الحقيقي الذي يجب أن نواجهه به أنفسنا؛ هل خرجنا من هذه المواقف بعبارة تقر بنا من الله، أم خرجنا كما دخلنا؟

إذا غادرت المقبرة أو مجلس العزاء وقد صغرت الدنيا في عينك، وتلاشت أحقادك، ولانت نفسك، وعزمت على صلة من قطعك، والعفو عن أساء إليك، حياً لله عز وجل فهنيئاً لك، لأن تلك المواقف الربانية أدت رسالتها الحقيقية في أعماق قلبك.

المطلوب منا أن نشيع خطانا بالذكر والتفكير، والاتعاظ من هذا الموقف الذي سنكون نحن "أبطاله يوماً ما". فالجنازة لم تكن يوماً خيراً عن موت غيرك، إنها في الحقيقة رسالة من الله الرحمن الرحيم إلى الأحياء، قبل أن تكون وداعاً للأموات.

أطال الله أعماركم في خير وعافية ورزق واسع حلال طيب مبارك، والحمد لله رب العالمين.

